

سجى الطرمان | Saja Torman*

مراجعة كتاب فجر العرب: شبابه وعائده الديموغرافي لبسمة المومني

Book Review

Arab Dawn: Arab Youth and the Demographic Dividend They Will Bring
By Bessma Momani

عنوان الكتاب:	فجر العرب: شبابه وعائده الديموغرافي.
الكاتبة:	بسمة المومني.
ترجمة:	فادي ملحم.
الناشر:	المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
مكان النشر:	الدوحة/ بيروت.
تاريخ النشر:	2016.
عدد الصفحات:	224.

*باحثة فلسطينية، حاصلة على درجة الماجستير في السياسات العامة بمعهد الدوحة للدراسات العليا.

Palestinian researcher, holds a master's degree in public policy at the Doha Institute for Graduate Studies.

الحديثة التي تتميز بالاعتماد المكثف على الأرقام والإحصاءات والمؤشرات الرقمية لمخاطبة القارئ. فهذا الكتاب يتناول الجانب المشرق من القصة؛ فهي منطقة فتية مليئة بالأمل وتطمح إلى التقدم والوصول إلى تحقيق مستقبل زاهر.

قدمت المومني مضامين كتابها عبر أربعة فصول، مناقشة مطلب الشباب في الحصول على الكرامة الاقتصادية والعمل المنتج، وتصورات الشباب نحو الحكومة والسياسة، ورؤية الشباب العرب لأنفسهم ومكانتهم في المجتمع، وفي الفصل الأخير تدرس الباحثة الروابط بين جيل عربي شاب وغربي، وتأثيرها في مسار العلاقات الدولية الاقتصادية والجيوسياسية والثقافية، وتختتمه الباحثة بسياسات عملية من شأنها أن تعظم الاستفادة من دور الشباب بصفتهم محركات تغيير تحتاج إليها المنطقة، في ظل بيئة تفتقر إلى الاستقرار السياسي، وتتصاعد فيها موجات العنف والتعصب.

استقت المومني مادتها بإدارة مجموعات حوار مركزة في البلدان العربية، إضافة إلى حوارات أجرتها الباحثة في مؤتمرات واجتماعات عربية لمناقشة تحديات الشباب، وأخرى دولية، كما أجرت حوارات مع شباب المناطق الفقيرة والريفية. ولجأت الكاتبة إلى الاستناد المكثف إلى الإحصائيات للتدليل على الصورة المتفائلة التي تقدمها، وعلى أن الشباب العرب اليوم يختلفون عن الأجيال السابقة وهم أكثر اندماجاً في النظام العالمي.

أولاً: الخبر

تتعدد دوافع الاحتجاج وأسبابه في الربيع العربي، وجلها دوافع اقتصادية واجتماعية متعلقة

الشباب هم رأس المال العربي المدفون، وهم مخزون «النفط» الحقيقي الذي لا ينضب؛ مورد إذا أحسنت الدول العربية استثماره استطاعت أن تعظم من تنافسيتها في القرن الحادي والعشرين، نظراً إلى التضخم الشبابي المشهود، مستصحباً بحالة من الحراك المجتمعي يمثل فيها الشباب الأداة الرئيسة للتغيير والإصلاح والثورة، في ردة فعلهم على سوء الأوضاع التي يعايشها الشباب العرب الذين يعانون في غالبيتهم البطالة والإحباط الناتج من طول المدة بين إنهاء الدراسة والحصول على فرصة عمل كريمة، إلى جانب التهميش السياسي. كل ذلك كان مترافقاً مع تنامي الانفتاح على الفضاء الإلكتروني ليتجاوز بذلك «الأسوار المعرفية»، والحدود الفاصلة بين الدول، لتكوين ذوات مطلعة على ما يحدث في العالم⁽¹⁾.

تدور أطروحات كتاب فجر العرب: شبابه وعائده الديموغرافي، للكاتبة بسمة المومني، على طرح مماثل يؤكد أن الشباب قوة مؤثرة في المستقبل العربي؛ فالعالم العربي يتغير من الداخل بفضل شبابه الذين يدفعون نحو مجتمع أقدر على المنافسة والمساءلة العالمية. وإن ارتباط المنطقة العربية وشبابها المتنامي بالمجتمعات الأخرى يفتح أمامها آفاقاً جديدة لنشر أعراف وقيم جديدة في السياسة والاقتصاد والمجتمع، عابرة للحدود بما يصب في مصلحة المنطقة العربية. وتكمن أهمية الكتاب في محاولة الباحثة صرف انتباه القارئ عن التفكير النمطي في المنطقة، والذي يدور حول العنف والإرهاب والصراعات، وانعدام الأمن، مستندة في ذلك إلى لغة العصر

(1) إبراهيم نصر الدين وآخرون، حال الأمة العربية: من تغيير النظام إلى تفكيك الدول، تحرير علي الدين هلال (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2015)، ص 333-334.

تعليمي يركز على التلقين ولا يعطي ما يكفي من الأولوية لمهارات التفكير النقدي، وإلى وجود كثير من الجامعيين على حساب التدريب المهني، كما أن القليل جداً من الجامعات يعتمد على المنشورات الأكاديمية حافزاً للتفوق.

أما عن دور الدولة، فتناقش الكاتبة أن المنطقة العربية شهدت تراجعاً في دور للدولة خلال السنوات العشرين الماضية، غيرت هذه العملية الانتقالية من نظرة الشباب وفكرتهم عن دور الحكومة الاقتصادي. فالدور الأبوي للدولة ليس حاضراً في ذهن الشباب العرب، بل إن السعي للمنافسة على السوق العالمية هو ما يقصده الشباب. ويتضح ذلك من خلال صعود فكرة إنشاء المشروعات؛ فعدد متزايد من الشباب اليوم يقوم بإنشاء قطاع خاص جديد وحيوي من الشركات الصغيرة، ليصبح جسماً جديداً ونامياً من رجال الأعمال الديناميين. ومع ذلك، فلا يزال العمل في القطاع العام على المستوى الكلي بين 60 و80 في المئة من مجموع العاملين في معظم منطقة الخليج، وحوالي 40 في المئة في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، بدءاً من 10 في المئة وهي نسبة ضئيلة في المغرب، إلى نحو 30 في المئة في مصر والأردن والعراق.

فهناك عديد العقبات التي تحول دون زيادة الأعمال في المنطقة. إلا أن هناك ميلاً لانخفاض الرغبة في الالتحاق بالقطاع العام، وارتفاعها في القطاع الخاص. وهذا يدل على أن الشباب العرب متحمسون للانخراط المدني وإيجاد الحلول للمشكلات اليومية التي يواجهونها، بوصفهم رواد أعمال. ومع ذلك يجب ألا تأخذ الحكومات ظاهرة زيادة الأعمال عذراً للتخلي عن مسؤولياتها في تنسيق السياسات التي تخلق فرص العمل.

بالتهميش وغياب التنمية⁽²⁾. وبناءً عليه، تناقش الكاتبة في الفصل الأول الذي اختارت له عنواناً «الخبز قبل الحرية» مسألة الكرامة الاقتصادية والعمل. فقصة التونسي محمد البوعزيزي أطلقت احتجاجات الربيع العربي، وتركت أثراً في الشباب العرب، ليتصدروا قيادة ثوراتها، بصفتهم شباباً آمنوا بأنهم يستحقون الأفضل، نتيجةً لوعي بالمجال العمومي وبواجبات الفرد وحقوقه ترافق مع تنامي مستويات التحصيل الأكاديمي. فالعالم العربي يشهد ثورة صامته ومتعددة الجوانب تتمثل في «النمو الواسع في التعليم العالي» وتضاعف عدد الكليات والجامعات والمعاهد، ما أدى أيضاً إلى تضاعف عدد الخريجين بنسب تتخطى بكثير معدلات النمو السكاني. ولا يمكن أن ننسى مسألة تزايد عدد الجامعات الخاصة التي أصبح في الإمكان تأسيسها وجعلها قادرة على المنافسة بسبب سياسات التحرير الاقتصادي. كما بنت الجامعات الأميركية مجتمعات في منطقة الخليج للاستفادة من رغبة الشباب في تحصيل مستويات أعلى من التعليم. وتعدّ ظاهرة الارتفاع في نسبة التعليم بين النساء من أبرز الظواهر في العالم العربي؛ إذ تخطت نسبتهم الرجال في الحصول على التعليم الجامعي. وعلى الرغم من ذلك، فإنهن يسجلن أدنى معدلات المشاركة في القوة العاملة، مقارنةً بالمناطق الأخرى من العالم. في المقابل، هذا يطرح تساؤلات حول أسباب تدني مشاركة النساء في القوى العاملة، وأخرى حول نوعية التعليم، وموقع الجامعات العربية في التصنيفات الجامعية العالمية، أمام واقع

(2) عزمي بشارة، سورية: درب الآلام نحو الحرية - محاولة في التاريخ الراهن (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013)، ص 154.

من التطورات التكنولوجية التي اجتاحت المنطقة لبلورة آرائهم عن التحرر من الفساد والمحسوبية والتمييز، وسمحت لهم بأن يستوعبوا ويكونوا أفكاراً جديدة عن العلاقة بين الحكومة والشعب. فقبل ما تسميه الكاتبة «الصحة العربية»، لم تكن الحكومات تتحمل انتقاد حكمها. ثم حظر الانتقاد العلني من خلال الترهيب والقمع، إلا أن الشباب استطاعوا أن يؤسسوا تجمعات سياسية وشبكات معلومات تشبه التنظيم السياسي للأحزاب والنقابات الذي شهده الغرب منذ قرون، ما كان قد بدأ مع مدوني الإنترنت ومنتدياتها تطور إلى نظام واسع من الناشطين على الإنترنت من دون لاقطة سياسية، لكن باهتمام واحد جوهرى مشترك: المستقبل السياسي للمنطقة العربية والتغيرات التي يجب أن تحصل. وقدمت التكنولوجيا أدوات للتواصل داخل هذه المجموعات وفيما بينها وعززت الدعوة إلى التغيير من الأسفل إلى الأعلى، فانتقال استهلاك الشباب العرب لوسائل الإعلام من الوسائط التقليدية إلى مصادر الإنترنت جزء مهم من عملية التفكير النقدي؛ لأنها تتطلب مساءلة الأفكار الخاطئة والتدقيق فيها والتحقق منها. فالرسائل النصية على الهاتف الجوال إبان الثورة السورية هي التي حددت ساحات التجمع للمتظاهرين والرسائل السياسية في شأن المطالب الموحدة، بما وصفه هارولد بمجموعات فطنة متحركة حيث في الإمكان العمل بصورة منسقة حتى لو لم يعرف كل شخص الآخر. هذا يدفعنا إلى القول بأن الحيز العام الافتراضي متمثلاً بوسائل الإعلام التفاعلية، قد قُدمت بوصفها مجالاً عاماً حقيقياً نافياً المجال السياسي القديم، وبيفاعلية شديدة قادرة على إنتاج حالة إجماع على

فالزيادة ليست الحل السحري لمسألة البطالة، وعلى الحكومات القيام بالمزيد لمعالجة مشكلة البطالة، مستفيدة من العائد الديموغرافي للعالم العربي، إذ يوفر سوقاً استهلاكية طبيعية قادرة بذاتها على الاستمرار، ومنجماً للعمل المبتكر، مع حالة معاكسة في شمال أميركا، وأوروبا واليابان، وحتى الصين. وعلى الرغم من هذه الهدية الديموغرافية، لم تتمكن بيئة المدينة العربية من إنتاج طبقة مبدعة، في ظل عدم القدرة على التفكير خارج الأطر الجامدة.

ثانياً: الحرية

يشير عزمي بشارة، في مسألة الحرية والمعنى، إلى كون الحرية إرادة واعية لوجود خيارات ممكنة والقدرة على الاختيار من بينها بناء على معطيات ووقائع، ومما لا شك فيه أن القدرة على الاختيار تنتفي في ظل أنظمة سلطوية واستبدادية لها قدرات دولة الرقابة البوليسية⁽³⁾، فالحرية على مختلف أنواعها تعني حق الإنسان في أن يكون سيد قراره في مجالات حياته، بما في ذلك رأيه السياسي والتعبير عنه⁽⁴⁾. وهي مفاهيم استطاع الشباب العرب أن يبلوروها ويدركوها عندما طالبوا بإعادة صوغ العلاقة بين الحكومة والشعب.

تناولت الكاتبة النظريات الأكاديمية المتداولة لإرساء التحول الديمقراطي في المنطقة، إلا أن المسألة أعمق من ذلك في نظر المومني؛ ذلك أنها تتعلق بجيل يتحدث عن السياسة ويفكر بها ويراهها بطريقة مختلفة عن سابقه. لقد استفادوا

(3) عزمي بشارة، مقالة في الحرية (الدوحة/ بيروت): المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2016، ص 22.

(4) المرجع نفسه، ص 75.

مع الأشياء التي تشبهه، وتمييزه من الأشياء التي لا تشبهه. وبصفتنا بشراً فإننا نستعملها لنشير إلى وعينا بماهيتنا، وإحساسنا بالسلمات الأساسية التي تميزنا، فتحدد هوياتنا من خلال الأفكار التي يحملها الآخر عنا، والأفكار التي نحملها عن أنفسنا. فتعكس الهوية ارتباط الإنسان بالأشخاص الآخرين وتمييزه منهم في الوقت نفسه⁽⁹⁾. وفي هذا السياق، ترى الباحثة أن رؤية الآخر لهوية الشباب العرب عالقة داخل دائرة مغلقة من النقاش بشأن الحداثة والتقليد، في وقت تتكسح فيه المنطقة العربية الليبرالية الاقتصادية والأفكار المتدفقة عن الحرية، وبما يتنافى مع طروحات صموئيل هنتنغتون عن صدام الحضارات والتي تختزل الصراع بين القيم الغربية، والقيم الإسلامية كاستنتاجات مفروغ منها مقبولة على نطاق واسع في الغرب، على الرغم من الإشكاليات في مقدماتها وتكهناتها، فيميل الشباب العرب أكثر إلى رفض الآراء المزوجة عن هوياتهم. نحن أمام حالة قادرة على المزج بين القيم الغربية والشرقية من دون الشعور بالتناقض نتيجة الجمع بين هويات عدة، حالة شغوفة بتأمين الكرامة مع السعي لإحقاق العدالة الاجتماعية للإفادة من القوى التحديثة التي استحضرتها العولمة، من دون التضحية بالقيم العربية الكبرى. ولعل هذا الوصف يتوافق مع ما يشير إليه أنتوني غدنز عندما وصف الوضع المعاصر بـ «النظام ما بعد التقليدي»، إذ تصبح «الذات مشروعاً انعكاسياً مرناً». فعلى شبكة الإنترنت، كما تقول توركل، تبنى الذات وتبنى قواعد التفاعل الاجتماعي، فأن نستخدم شبكة الإنترنت يعني أن نبتدع ذاتنا

قيم ورموز سياسية معينة⁽⁵⁾. لقد دفعت الدول العربية التي لا تتيح التعبير عن الرأي الشباب للبحث عن فضاءات عمومية أخرى اتخذت من وسائل التواصل الاجتماعي قاعدة لها، ومنصات حرة تتخطى الهرميات الاجتماعية والسياسية، وتتحدى منطق التحكم⁽⁶⁾. ففي الثورة السورية مصادرة السلطة للحيز العام بالشكل التقليدي، ومنع النقاش والحراك السياسي أحال شباب الثورة على مغادرته والاستعاضة عنه بالحيز العام الافتراضي لاستعادة المجال السياسي المختطف لدى الدكتاتورية⁽⁷⁾. ولكن أيضاً لا يمكن إهمال التحديات الجديدة لحرية التعبير؛ فقد زودت وسائل التواصل الاجتماعي أجهزة الرقابة والأمن بكُم هائل من المعلومات عن الأفراد ونزعاتهم وميولهم، وسهولة نشر الشائعات بدلاً من المعلومات، مع عدم الاعتراف بأي مرجعيات وقادة ونخب قادرة على عقلنة الخطاب، فتنتقل العفوية بصفتها أحد أشكال حرية التعبير إلى مقيد لحرية التعبير؛ إذ تلغي الحرية أي معنى للحرية⁽⁸⁾.

ثالثاً: الهوية

الهوية فكرة معقدة، لا تكتسب معناها وتعريفها إلا في سياق علائقي، أي في نطاق علاقات التماثل والاختلاف، الاقتران والتمايز، الجماعة والفرد. ويرتبط هذا المصطلح بالممارسات البشرية الخاصة بتسمية الأشياء وتصنيفها. فحين نسمي شيئاً نحدد هويته، فنحدد ماهيته بتصنيفه

(5) حمزة المصطفى، المجال العام الافتراضي في الثورة السورية: الخصائص-الانجاهات-آليات صنع الرأي العام (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012)، ص 15.

(6) بشارة، مقالة في الحرية، ص 126-129.

(7) المرجع نفسه.

(8) المصطفى، ص 15.

(9) دارن بارني، المجتمع الشبكي، ترجمة أنور الجمعاوي (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2015)، ص 179.

كبير من المهاجرين العرب من العمال وأصحاب المواهب والطلاب، بوصفهم رسلاً للتنقل الدائري يمثلون ما يسمى أيضاً «بنك الأدمغة» ويمثلون التجربة الحية للعولمة، والتنقل الدائري لن يحول إلى المنطقة العربية المال فحسب، وإنما أيضاً الأفكار والقيم التي ستعيد صوغ هذه المنطقة لتحسينها تحسناً شاملاً. فتزداد نسبة الطلاب العرب في الخارج أكثر من أي وقت مضى، لتطوير مستوى تحصيلهم، وتعدّ الولايات المتحدة الأميركية وجهتهم الأساس تليها المملكة المتحدة وكندا والبر الأوروبي وأستراليا. وتتصدر المملكة العربية السعودية الدول المرسله للطلاب تليها الكويت والإمارات العربية المتحدة ومصر، فهؤلاء عند عودتهم أو من خلال تواصلهم مع العائلة والأصدقاء يمثلون «تحويلات اجتماعية» بالقيم والأفكار التي يتبنونها، والتي إن بدت بسيطة فإنه لا يمكن الاستهانة بتأثيرها. فوجود شباب عرب متعلمين في ظل التعقيد الحالي وتصاعد العنف والنزاعات، متبنين قيم التعدد الثقافي، سيمثل مساهمة قيمة يعول عليها في حال استدامتها لمصلحة المنطقة العربية. فاختبار حياة مغايرة لا سيما بالنسبة إلى الفئات المنتمية إلى مجتمعات محافظة من المؤكد أن يؤدي إلى تشكيل ضغوط على الحكومات العربية للتخفيف من قيودها، فيدرك القادة الشبان وغالبيتهم ممن درسوا في الخارج واحتكوا بخبرات وحضارات مختلفة، صعوبة استمرار المماطلة في تطبيق خطوات جادة للإصلاح السياسي أو مقايضتها بتوزيع مزيد من الثروة، أو الاعتماد على القبضة الأمنية للتصدي لمطالب الشباب، فكما قال باحث خليجي، لا يمكن الركون إلى الهدوء الظاهر الذي يكمن خلف خريطة الانتشار الأمني الواسع، وليس هناك من سفينة نجاة تنقذها (أي

على نحو متواصل، وهويتك على الحاسوب هي محصلة حضورك المشتت، ذلك أن الهوية تصبح شديدة السيولة والتعدد إلى الدرجة التي تجعل مفهومها ذا حدود فضفاضة⁽¹⁰⁾.

وتشير الكاتبة إلى أن مسألة التشدد ليست حكرًا على المجتمعات العربية، وإنما يوجد ما يماثلها في الغرب، فهي لديها الحق في ممارسة معتقداتها شريطة ألا تتعدى على الآخر. تعزو الكاتبة هذه التغيرات إلى كون العالم العربي بات يرى نفسه إلى حد بعيد أكثر عالمية «كوزموبوليتاني» في تصوراتها، وينطبق هذا الوصف على وجه الخصوص على المناطق المدنية. بل إن بعضهم يصفون أنفسهم أبناء الثقافة الثالثة، ويرى هؤلاء أن مفهوم الوطن بات شبه مائع، بعدم الانتماء إلى أي مكان والقدرة على التأقلم للعيش في أي مكان. وهذا بطبيعة الحال وضع فرضه انعدام الاستقرار السياسي في المنطقة، وتبني قيم الثقافة العالمية، من دون الوقوع في البنى الثنائية الموجودة لدى الأجيال السابقة. ويمكن الاستدلال على ذلك بكثير من البرامج والمبادرات، والآراء والتصورات الشبابية التي تمزج بين القيم الغربية والإسلامية بوسائل دينامية ومبتكرة؛ فوجود هوية عابرة للأوطان لا يمكن تجاهل تأثيرات الغرب في المنطقة العربية.

رابعًا: التنقل الدائري

يتناول الفصل الرابع ازدياد الروابط العابرة للحدود الوطنية التي تربط العالمين العربي والغربي، وكيفية تحول الشباب العرب والعرب عمومًا إلى أبطال المساهمة والاستفادة معًا من هذه الحركة العالمية الدائرية للناس والأفكار. فهناك عدد

(10) المرجع نفسه، ص 168-188.

البلدان الخليجية) مما يجري في البلدان العربية إلا أرضاً شعوبها⁽¹¹⁾.

الخاتمة

عند الحديث عن المنطقة العربية، لا بد أن ننتبه إلى مسألة مدى درجة التجانس؛ ذلك أنه يجب التمييز بين مجموعتين من الأقطار العربية. تضم أولاهما دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، وتشمل ثانيتهما الأقطار المتبقية؛ فالأولى لديها وفورات وإمكانات مادية تتفاوت في حجمها من منطقة إلى أخرى، ولكنها بطبيعة الحال قادرة على تمكين الشباب وتهيئة أفضل الفرص والاستجابة لاحتياجاتهم. أما الثانية، فليس لديها هذه الميزة، ولا يعني هذا أن حركة التغيير مختلفة كلياً بقدر ما يعني أن احتياجات الشباب ومشكلاتهم وهمومهم إلى حد ما وتحدياتهم وإمكانية تجاوزها تتأثر بهذا التصنيف. وعلى الرغم من حالة التفاؤل الجلية في سطور الباحثة، فإن

(11) نصر الدين وآخرون، ص 388.

References

بارني، دارن. المجتمع الشبكي. ترجمة أنور الجمعاوي. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2015.

بشارة، عزمي. سورية: درب الألام نحو الحرية - محاولة في التاريخ الراهن. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013.

_____ .مقالة في الحرية. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2016.

المصطفى، حمزة. المجال العام الافتراضي في الثورة السورية: الخصائص-الاتجاهات-آليات صنع الرأي العام. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012.

نصر الدين، إبراهيم وآخرون. حال الأمة العربية: من تغيير النظام إلى تفكيك الدول. تحرير علي الدين هلال. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2015.